من أساليب النبي صلى الله عليه وسلم التربوية

محمد الدويش

1 - التربية بالقصة:

إن القصة أمر محبب للناس، وتترك أثرها في النفوس، ومن هنا جاءت القصة كثيراً في القرآن، وأخبر تبارك وتعالى عن شأن كتابه فقال:{نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن } {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى } وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : { واقصص القصص لعلهم يتفكرون } ولهذا فقد سلك النبي صلى الله عليه وسلم هذا المنهج واستخدم هذا الأسلوب .

شاب من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم - وهو خباب بن الأرت رضي الله عنه - يبلغ به الأذى والشدة كل مبلغ فيأتي للنبي صلى الله عليه وسلم شاكياً له ما أصابه فيقول رضي الله عنه :أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة - وقد لقينا من المشركين شدة - فقلت :ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال: " لقد كان من كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد مادون عظامه من لحم أوعصب، مايصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله " [رواه البخاري (3852]

وحفظت لنا السنة النبوية العديد من المواقف التي يحكي فيها النبي صلى الله عليه وسلم قصة من القصص، فمن ذلك: قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار، وقصة الذي قتل مائة نفس، وقصة الأعمى والأبرص والأقرع، وقصة أصحاب الأخدود... وغيرها كثير.

2 - التربية بالموعظة:

للموعظة أثرها البالغ في النفوس، لذا فلم يكن المربي الأول صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم يغيب عنه هذا الأمر أو يهمله فقد كان كما وصفه أحد أصحابه وهو ابن مسعود -رضي الله عنه-:"كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا" [رواه البخاري (68]

ويحكي أحد أصحابه وهو العرباض بن سارية -رضي الله عنه- عن موعظة وعظها إياهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقول : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبد حبشي فإنه من يعش منكم يرى اختلافا كثيرا، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ " [رواه الترمذي (2676) وابن ماجه (42)] وحتى تترك الموعظة أثرها ينبغي أن تكون تخولاً ، وألا تكون بصفة دائمة .

عن أبي وائل قال كان عبدالله يذكر الناس في كل خميس فقال له رجل يا أبا عبدالرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم قال أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا بها مخافة السآمة علينا [رواه البخاري (70) ومسلم (2821)]

3 - الجمع بين الترغيب والترهيب:

النفس البشرية فيها إقبال وإدبار، وفيها شرّة وفترة، ومن ثم كان المنهج التربوي الإسلامي يتعامل مع هذه النفس بكل هذه الاعتبارات، ومن ذلك الجمع بين الترغيب والترهيب، والرجاء والخوف.

عن أنس -رضي الله عنه- قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط:"قال لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً" قال: فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم لهم خنين [رواه البخاري (4621) ومسلم ()].

ومن أحاديث الرجاء والترغيب ما حدث به أبو ذر -رضي الله عنه- قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وعليه ثوب أبيض وهو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ فقال:"ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة" قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال:"وإن زنى وإن سرق" قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال:"وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر" وكان أبو ذر إذا حدث بهذا قال: وإن رغم أنف أبي ذر [رواه البخاري (5827) ومسلم (94)].

وعن هريرة -رضي الله عنه- قال كنا قعودا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم معنا أبو بكر وعمر في نفر فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين أظهرنا فأبطأ علينا وخشينا أن يقتطع دوننا، وفزعنا فقمنا فكنت أول من فزع، فخرجت أبتغي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتيت حائطاً للأنصار لبني النجار فدرت به هل أجد له بابا فلم أجد، فإذا ربيع يدخل في جوف حائط من بئر خارجة -والربيع الجدول- فاحتفزت كما يحتفز الثعلب فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:"أبو هريرة؟" فقلت: نعم يارسول الله، قال:"ما شأنك؟" قلت: كنت بين أظهرنا فقمت فأبطأت علينا، فخشينا أن تقتطع دوننا، ففزعنا فكنت أول من فزع، فأتيت هذا الحائط فاحتفزت كما يحتفز الثعلب، وهؤلاء الناس ورائي، فقال:"يا أبا هريرة" -وأعطاني نعليه- قال:"اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة"...الحدي ث. [رواه مسلم (31)] والمتأمل في الواقع يلحظ أننا كثيراً ما نعتني بالترهيب ونركز عليه، وهو أمر مطلوب والنفوس تحتاج إليه، لكن لابد أن يضاف لذلك الترغيب، من خلال الترغيب في نعيم الجنة وثوابها، وسعادة الدنيا لمن استقام على طاعة الله، وذكر محاسن الإسلام وأثر تطبيقه على الناس، وقد استخدم القرآن الكريم هذا المسلك فقال تعالى:{ ولو أن أهل القرى ...} {ولو أنهم أقاموا التوراة ... } .

4 - الإقناع العقلي:

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن فتى شابا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، قالوا: مه مه، فقال: "ادنه" فدنا منه قريباً قال: فجلس قال : " أتحبه لأمك ؟ " قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: " ولا الناس يحبونه لأمهاتهم" قال: "أفتحبه لابنتك؟" قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك، قال: "ولا الناس يحبونه لبناتهم" قال: "أفتحبه لأختك؟" قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: "ولا الناس يحبونه لأخواتهم" قال:"أفتحبه لعمتك؟" قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: "ولا

الناس يحبونه لعماتهم" قال: "أفتحبه لخالتك؟" قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: "ولا الناس يحبونه لخالاتهم" قال: فوضع يده عليه وقال: "اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه" فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء [رواه أحمد ( )] .

إن هذا الشاب قد جاء والغريزة تتوقد في نفسه، مما يدفعه إلى أن يكسر حاجز الحياء، ويخاطب النبي صلى الله عليه وسلم علناً أمام أصحابه، وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم المربي المعلم لديه جانباً لم يدركه فيه أصحابه فما هو؟

لقد جاء هذا الشاب يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم ولو كان قليل الورع عديم الديانة لم ير أنه بحاجة للاستئذان بل كان يمارس ما يريد سراً، فأدرك صلى الله عليه وسلم هذا الجانب الخير فيه، فما ذا كانت النتيجة : "فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء"

5 - استخدام الحوار والنقاش:

وخير مثال على ذلك موقفه صلى الله عليه وسلم مع الأنصار في غزوة حنين بعد قسمته للغنائم، فقد أعطى صلى الله عليه وسلم المؤلفة قلوبهم وترك الأنصار، فبلغه أنهم وجدوا في أنفسهم، فدعاهم صلى الله عليه وسلم ، وكان بينهم وبينه هذا الحوار الذي يرويه عبدالله بن زيد -رضي الله عنه- فيقول: لما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئا، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم فقال: "يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟" كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن، قال: "ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟" قال كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمن قال:" لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا، أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار، إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض" [رواه البخاري (4330) ومسلم (1061)] ففي هذا الموقف استخدم النبي صلى الله عليه وسلم الحوار معهم، فوجه لهم سؤالاً وانتظر منهم الإجابة، بل حين لم يجيبوا لقنهم الإجابة قائلاً : (ولو شئتم لقلتم ولصدقتم وصُدقتم ...) .

6 - الإغلاظ والعقوبة:

وقد يُغلظ صلى الله عليه وسلم على من وقع في خطأ أو يعاقبه:

فعن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رجل: يا رسول الله، لا أكاد أدرك الصلاة مما يطول بنا فلان، فما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في موعظة أشد غضباً من يومئذ فقال:" أيها الناس إنكم منفرون فمن صلى بالناس فليخفف فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة" [رواه البخاري (90) ومسلم (466)].

وعن زيد بن خالد الجهني -رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم سأله رجل عن اللقطة فقال:"اعرف وكاءها -أو قال: وعاءها وعفاصها- ثم عرفها سنة، ثم استمتع بها، فإن جاء ربها فأدها إليه" قال: فضالة الإبل؟ فغضب حتى احمرت وجنتاه -أو قال احمر وجهه- فقال:" وما لك ولها، معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وترعى الشجر فذرها حتى يلقاها ربها" قال: فضالة الغنم؟ قال:" لك أو لأخيك أو للذئب" [رواه البخاري (90) ومسلم (1722)].

وقد بوب البخاري رحمه الله في صحيحه على هذين الحديثين " باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى مايكره".

وعن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى خاتماً من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه وقال:"يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده" فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم : خذ خاتمك انتفع به، قال: لا والله لا آخذه أبداً وقد طرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم . [رواه مسلم (2090)]

عن سلمة بن الأكوع -رضي الله عنه- أن رجلا أكل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بشماله فقال كل بيمينك قال لا أستطيع قال لا استطعت ما منعه إلا الكبر قال فما رفعها إلى فيه [رواه مسلم (2021)]

إلا أن ذلك لم يكن هديه الراتب صلى الله عليه وسلم فقد كان الرفق هو الهدي الراتب له صلى الله عليه وسلم ، لكن حين يقتضي المقام الإغلاظ يغلظ صلى الله عليه وسلم ، ومن الأدلة على ذلك:

1- أن الله سبحانه وتعالى وصفه بالرفق واللين أو بما يؤدي إلى ذلك قال تعالى {فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك } فوصفه باللين وقال تعالى : {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم } ولا أدل على وصفه عليه الصلاة والسلام من وصف الله له فهو العليم به سبحانه .

2- وصف أصحابه له :

فقد وصفه معاوية بن الحكم -رضي الله عنه- بقوله :فبأبي هو وأمي ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني [رواه مسلم (537)].

3- أمره صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالرفق فهو القدوة في ذلك وهو الذي نزل عليه {لم تقولون مالاتفعلون } فهو أقرب الناس الى تطبيقه وامتثاله، وحينما أرسل معاذاً وأبا موسى إلى اليمن قال لهما : "يسرا ولاتعسرا وبشرا ولاتنفر ا" [رواه البخاري (3038) ومسلم (1733)] .

4- ثناؤه صلى الله عليه وسلم على الرفق، ومن ذلك في قوله:"ماكان الرفق في شيئ إلا زانه ولانزع من شيئ إلا شانه" وقوله صلى الله عليه وسلم لعائشة :"إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله " رواه البخاري (6024) ومسلم (2165)] وفي رواية:"إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه" [رواه مسلم (2593)].

وفي حديث جرير -رضي الله عنه- "من يحرم الرفق يحرم الخير" [رواه مسلم (2592)] ويعطي على الرفق مالايعطي على العنف) .

5- سيرته العملية في التعامل مع أصحابه فقد كان متمثلاً الرفق في كل شيئ ومن ذلك :

أ) قصة الأعرابي الذي بال في المسجد والقصة مشهورة.

ب) قصة عباد بن شرحبيل - رضي الله عنه - يرويها فيقول: أصابنا عام مخمصة فأتيت المدينة فأتيت حائطا من حيطانها فأخذت سنبلا ففركته وأكلته وجعلته في كسائي، فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال للرجل:" ما أطعمته إذ كان جائعا -أو ساغبا- ولا علمته إذ كان جاهلا" فأمره النبي صلى الله عليه وسلم فرد إليه ثوبه وأمر له بوسق من طعام أو نصف وسق [رواه أحمد (16067) وأبو داود (2620) وابن ماجه (2298)].

ج)قصة سلمة بن صخر الأنصاري -رضي الله عنه- قال: كنت رجلا قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري، فلما دخل رمضان تظاهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان، فرقا من أن أصيب منها في ليلتي فأتتابع في ذلك إلى أن يدركني النهار وأنا لا أقدر أن أنزع، فبينما هي تخدمني ذات ليلة إذ تكشف لي منها شيء فوثبت عليها، فلما أصبحت غدوت على قومي فأخبرتهم خبري فقلت انطلقوا معي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بأمري فقالوا: لا والله لا نفعل نتخوف أن ينزل فينا قرآن أو يقول فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالة يبقى علينا عارها، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك، قال: فخرجت فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته خبري فقال:" أنت بذاك؟ " قلت: أنا بذاك، قال:" أنت بذاك؟ " قلت: أنا بذاك، قال:" أنت بذاك؟ " قلت: أنا بذاك، وها أنا ذا فأمض في حكم الله فإني صابر لذلك، قال:" أعتق رقبة" قال: فضربت صفحة عنقي بيدي فقلت: لا والذي بعثك بالحق لا أملك غيرها، قال:" صم شهرين" قلت: يا رسول الله، وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام؟ قال:" فأطعم ستين مسكينا" قلت: والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وحشى ما لنا عشاء، قال:" اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق فقل له فليدفعها إليك، فأطعم عنك منها وسقا ستين مسكينا، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك" قال فرجعت إلى قومي فقلت وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي ووجدت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم السعة والبركة، أمر لي بصدقتكم فادفعوها إلي، فدفعوها إلي [رواه أحمد (23188) وأبو داود (2213) والترمذي () وابن ماجه (2062].

7 - الهجر:

واستعمل النبي صلى الله عليه وسلم أسلوب الهجر في موقف مشهور في السيرة، حين تخلف كعب بن مالك -رضي الله عنه- وأصحابه عن غزوة تبوك، فهجرهم صلى الله عليه وسلم وأصحابه، لايكلمهم أحد أكثر من شهر حتى تاب الله تبارك وتعالى عليهم.

إلا أن استخدام هذا الأسلوب لم يكن هدياً دائماً له صلى الله عليه وسلم فقد ثبت أن رجلاً كان يشرب الخمر وكان يضحك النبي صلى الله عليه وسلم ... والمناط في ذلك هو تحقيقه للمصلحة، فمتى كان الهجر مصلحة وردع للمهجور شرع ذلك وإن كان فيه مفسدة وصد له حرم هجره .

8 - استخدام التوجيه غير المباشر:

ويتمثل التوجيه غير المباشر في أمور منها:

أ - كونه صلى الله عليه وسلم يقول مابال أقوام، دون أن يخصص أحداً بعينه، ومن ذلك قوله في قصة بريرة فعن عائشة -رضي الله عنها- فقالت أتتها بريرة تسألها في كتابتها فقالت إن شئت أعطيت أهلك ويكون الولاء لي فلما جاء رسول الله صلى اللهم عليه وسلم ذكرته ذلك قال النبي صلى اللهم عليه وسلم ابتاعيها فأعتقيها فإنما الولاء لمن أعتق ثم قام رسول الله صلى

اللهم عليه وسلم على المنبر فقال ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله من اشترط شرطا ليس في كتاب الله فليس له وإن اشترط مائة شرط [رواه البخاري (2735) ومسلم ()]

وحديث أنس -رضي الله عنه- أن نفرا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن عمله في السر فقال بعضهم لا أتزوج النساء وقال بعضهم لا آكل اللحم وقال بعضهم لا أنام على فراش فحمد الله وأثنى عليه فقال :"ما بال أقوام قالوا كذا وكذا لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني" [رواه البخاري (1401)].

ب - وأحياناً يثني على صفة في الشخص ويحثه على عمل بطريقة غير مباشرة، ومن ذلك مارواه عن عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: كان الرجل في حياة النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى رؤيا قصها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فتمنيت أن أرى رؤيا أقصها على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكنت غلاماً أعزب، وكنت أنام في المسجد على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فرأيت في المنام كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطوية كطي البئر، وإذا فيها ناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، فلقيهما ملك آخر فقال لي: لن تراع، فقصصتها على حفصة، فقصتها حفصة على النبي صلى الله عليه وسلم فقال:"نعم الرجل عبدالله لو كان يصلي بالليل" قال سالم: فكان عبدالله لا ينام من الليل إلا قليلاً [رواه البخاري (3738-3739].

ج - وأحياناً يأمر أصحابه بما يريد قوله للرجل، عن أنس بن مالك أن رجلا دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه أثر صفرة وكان النبي صلى الله عليه وسلم قلما يواجه رجلا في وجهه بشيء يكرهه فلما خرج قال:" لو أمرتم هذا أن يغسل هذا عنه" [رواه أبو داود (4182)]

د - وأحياناً يخاطب غيره وهو يسمع، عن سليمان بن صرد قال استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم ونحن عنده جلوس وأحدهما يسب صاحبه مغضبا قد احمر وجهه فقال النبي صلى الله عليه وسلم :" إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال: إني لست بمجنون [رواه البخاري (6115) ومسلم (2610)]

9 - استثمار المواقف والفرص:

عن أنس -رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مع أصحابه يوماً وإذا بامرأة من السبي تبحث عن ولدها فلما وجدته ضمته فقال صلى الله عليه وسلم :"أترون هذه طارحة ولدها في النار" قالوا: لا، قال:"والله لايلقي حبيبه في النار؟" [رواه البخاري (5999) ومسلم (2754).].

فلا يستوي أثر المعاني حين تربط بصور محسوسة، مع عرضها في صورة مجردة جافة.

إن المواقف تستثير مشاعر جياشة في النفس، فحين يستثمر هذا الموقف يقع التعليم موقعه المناسب، ويبقى الحدث وما صاحبه من توجيه وتعليم صورة منقوشة في الذاكرة، تستعصي على النسيان.

والمواقف متنوعة فقد يكون الموقف موقف حزن وخوف فيستخدم في الوعظ، كما في وعظه صلى الله عليه وسلم أصحابه عند القبر.

عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله صلى اللهم عليه وسلم وجلسنا حوله كأنما على رءوسنا الطير وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه فقال استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا... ثم ذكر الحديث الطويل في وصف عذاب القبر وفتنته. [رواه ابو داوود (4753)]

ب ـ وقد يكون وقد يكون موقف مصيبة إذا أمر حل بالإنسان، فيستثمر ذلك في ربطه بالله تبارك وتعالى.

عن زيد بن أرقم قال أصابني رمد فعادني النبي صلى الله عليه وسلم ، قال فلما برأت خرجت، قال فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم :" أرأيت لو كانت عيناك لما بهما ما كنت صانعاً؟" قال: قلت: لو كانتا عيناي لما بهما صبرت واحتسبت، قال:"لو كانت عيناك لما بهما ثم صبرت واحتسبت للقيت الله عز وجل ولا ذنب لك" [رواه أحمد]

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم استخدم مثل هذا الموقف لتقرير قضية مهمة لها شأنها وأثرها كما فعل حين دعائه للمريض بهذا الدعاء، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـرضي الله عنهماـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"إذا جاء الرجل يعود مريضا قال: اللهم اشف عبدك ينكأ لك عدوا ويمشي لك إلى الصلاة" [رواه أحمد (6564)]

إنه يوصي المسلم بعظم مهمته وشأنه وعلو دوره في الحياة، فهو بين أن يتقدم بعبادة خالصة لله ، أو يساهم في نصرة دين الله والذب عنه .

ج ـ وقد يكون الموقف ظاهرة كونية مجردة، لكنه صلى الله عليه وسلم يستثمره ليربطه بهذا المعنى عن جرير بن عبدالله ـرضي الله عنهـ قال كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة يعني البدر فقال:"إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا" ثم قرأ {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب} [رواه البخاري (554) ومسلم]

دـ وقد يكون الموقف مثيراً، يستثير العاطفة والمشاعر كما في حديث أنس السابق في قصة المرأة .

10 ـ التشجيع والثناء:

سأله أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ يوماً :من أسعد الناس بشفاعتك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم "لقد ظننت أن لايسألني أحد عن هذا الحديث أول منك لما علمت من حرصك على الحديث" [رواه البخاري (99)]. فتخيل معي أخي القاريء موقف أبي هريرة، وهو يسمع هذا الثناء، وهذه الشهادة من أستاذ الأساتذة، وشيخ المشايخ صلى الله عليه وسلم .بحرصه على العلم، بل وتفوقه على الكثير من أقرانه. وتصور كيف يكون أثر هذا الشعور دافعاً لمزيد من الحرص والاجتهاد والعناية.

وحين سأل أبيَ بن كعب: "أبا المنذر أي آية في كتاب الله أعظم؟" فقال أبي:آية الكرسي. قال له صلى الله عليه وسلم "ليهنك العلم أبا المنذر" [رواه مسلم (810) وأحمد (5/142)] ".

إن الأمر قد لايعدو كلمة ثناء، أو عبارة تشجيع، تنقل الطالب مواقع ومراتب في سلم الحرص والاجتهاد. والنفس أياً كان شأنها تميل إلى الرغبة في الشعور بالإنجاز. ويدفعها ثناء الناس ـالمنضبطـ خطوات أكثر.

والتشجيع والثناء حث للآخرين، ودعوة غير مباشرة لهم لأن يسلكوا هذا الرجل الذي توجه الثناء له.

موقع الدويش

http://www.dweesh.net/arb/daweyat.asp?order=3&num=567

3 ـ مهمَّة النبي صلى الله عليه وسلم

سورة آل عمران(3)

قال الله تعالى: {لقد مَنَّ الله على المُؤمنينَ إذ بَعَثَ فيهم رسُولاً من أنفُسِهِم يَتلُوا عليهم آياتِهِ ويُزَكِّيهِم ويُعَلِّمُهُمُ الكتابَ والحِكمَةَ وإن كانوا مِن قَبلُ لفي ضَلالٍ مُبينٍ(164)}

/ ومضات:

ـ قامت دعوة الأنبياء ضمن مجتمعاتهم الَّتي ولدوا فيها وانتموا إليها، ولم يكونوا دخلاء عليها، لذلك جاءت هذه الدعوة ملائمة لحاجاتهم البشرية ومنظِّمة لها. أمَّا دعوة محمَّد صلى الله عليه وسلم فكانت دعوة شاملة تلبِّي حاجات بني آدم كلِّهم، وتنظِّم حياة الإنسان أيَّ إنسان على هذه الأرض، أمَّا غيرها فكانت دعوة إقليمية خاصَّة بفئة، أو أمَّة معيَّنة دون سواها.

ـ كانت مهمَّة الرسول صلى الله عليه وسلم في تبليغ رسالة الإسلام إلى الناس تستند إلى مقوِّمات أساسية أهمُّها:

ا ـ تلاوة آيات الله عليهم وجعلهم يتدبَّرون كلماتها بتفهُّم وتعقُّل.

ب ـ تزكيتهم بتطهير قلوبهم ونفوسهم من خبائث الصفات وقبائح الأعمال.

ج ـ تعليمهم كافَّة المعارف الَّتي تضمَّنها القرآن الكريم.

د ـ إرشادهم إلى سبل الحكمة؛ وهي التأمُّل والتحليل لوقائع الحياة واستخلاص العبر منها، فهي قوام كلِّ عمل ناجح، وهي الَّتي تصل به إلى غايته بأقصر السُّبل وأيسرها.

/ في رحاب الآيات:

في خضمِّ المتاهات الفكرية، والصراعات القبلية، وفي ظلِّ العبودية والرِّق وحكم الأقوياء وتسلُّطهم، وفرضهم لمعتقداتهم الَّتي يتستَّرون وراءها، بُعث النبي محمَّد صلى الله عليه وسلم في شبه الجزيرة العربية، وأُعطيت له رسالةٌ واضحة الأهداف، راقية بأخلاقياتها وسُمُوِّها الروحي؛ لإنقاذ الجنس البشري وتنظيم مسيرته لما فيه خيره وسعادته. وقد بعثه الله تعالى عربياً من جنس قومه وبلسانهم؛ ليكون أسوتهم وليتمكَّنوا من الاقتداء به. فلم يكن غريباً عنهم بل إنه وُلد فيهم، وترعرع بينهم، وعاش بين ظهرانيهم أربعة عقود كاملة قبل بعثته. وقد علموا فضله في كلِّ ناحية من نواحي حياته، واختبروا أخلاقه وعاداته منذ صباه ونعومة أظفاره إلى أن بلغ أَشُدَّه واستوى، وخرج إلى الناس يدعوهم إلى الإسلام، ويبلِّغهم كلام الله تعالى بالشكل الَّذي نزل عليه، ويبيِّن لهم الأهداف الَّتي يرمي إليها، ويعلِّمهم أمور الحلال والحرام، والخطأ والصواب وينير لهم سبل العلم والمعرفة، ويزرع في عقولهم الحكمة ليزدادوا رقيّاً وكمالاً. وفي هذه الآيات الكريمة يُذكِّر الله المؤمنين بما امْتَنَّ به عليهم وتفضَّل من بعثة النبي فيهم، فكانت فاتحة تاريخ مشرق ومستقبل ناجح متألِّق، كما يحدد تعالى المهامَّ الَّتي بُعث الرسول بها، وهي تعليمهم القرآن والحكمة وتزكية نفوسهم.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو على أصحابه كتاب الله شارحاً لمعانيه، موضحاً لأهدافه، ليتَّخذوه دستوراً لحياتهم، وليطبِّقوا برنامجه الربَّاني الكامل؛ فيَسعدوا في أنفسهم ويُسعِدوا غيرهم، ويرتقوا بتعاليمه إلى قِمم النجاح في مستقبلهم الدنيوي والأخروي. وقد آتت هذه التلاوة ثمارها يانعة منذ عصر النبوَّة؛ فتحقَّق بها إنقاذ الأمَّة من ظلماتٍ بعضها فوق بعض إلى نور العلم والحضارة والرقي، وتبوَّأت مكان الصدارة في قيادة العالم، وصارت خير أمَّة أخرجت للناس. تلك بعض الثمرات على المستوى الجماعي، أمَّا على الصعيد الفردي فكان لتلاوة آيات الله جاذبية تسري في النفوس، فتحيل المستمع من جاهل إلى عالم، ومن عدو إلى حبيب، وكثيراً ما كانت هي الدافع الَّذي حمل الكثيرين على الدخول في الإسلام.

ومن أَجَلِّ المهامِّ الَّتي أُرسل النبيصلى الله عليه وسلم لتحقيقها مهمَّة التزكية؛ وهي تطهير قلوب المؤمنين وعقولهم ومجتمعهم، من الشرك والوثنية والخرافة، وما تنفثه هذه المعتقدات في أصحابها من مشاعر وإيحاءات، قد تهبط بالإنسان إلى ما دون مستوى الحيوان. فقد كان عليه السَّلام يقتلع من أعماق صحابته جذور الوثنية ورواسبها فكرياً ونفسياً، ويدفع عنهم العقائد الباطلة، الَّتي تجعل صاحبها أسير الجهل والخرافات، والتخلف وانحراف الفطرة.

ولم تقتصر مهمَّته صلى الله عليه وسلم في التزكية على تطهير العقول من المعتقدات الباطلة؛ بل إنها اهتمَّت إلى جانب ذلك بتطهير النفس من الصفات الناقصَّة، والعادات الذميمة. وقد تمكَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم من بلوغ هذه الغاية فأسَّس المجتمع الفاضل وأوجده على أرض الواقع والحقيقة، وكان المزكِّي الأعظم الَّذي زكَّى نفوس أصحابه بأقواله وأحواله وأعماله، وبذل في سبيل هذه المهمَّة جميع الوسائل الموصلة إليها، والَّتي كان من أهمِّها الدعوة إلى مجاهدة النفس، والعمل على تخليصها من رذائل الصفات وتحليتها بفضائل الأخلاق ومكارمها. وحقيقة المجاهدة هي السُّمُو بصفات النفس البشرية، وتصعيدها من السيء إلى الحسن بل إلى الأحسن؛ لأنها مفطورة على الخير ولديها القابلية للشر. وجوهر عملية التزكية يكمن في العمل على الارتقاء بالنفس، درجة درجة، إلى أن تبلغ أعلى المستويات الإنسانية وأسماها، فهي تحيلها من كونها أمَّارة بالسوء إلى نفس لوَّامة، تلوم صاحبها كلَّما قصَّر وأساء، فإذا ما تاب واستقام على الخير سكنت، وارتقت في معارج الصفاء، فصارت نفساً مطمئنَّة، راضيةً عن ذاتها، مَرْضِيَّة عند مولاها.

والجدير بالذكر هنا أن الآيات الكريمة عندما حدَّدت مهامَّ النبي صلى الله عليه وسلم قد جعلت مهمَّة التزكية سابقة، ومهمَّة التعليم لاحقة؛ إشارة إلى أهمية مرحلة تطهير النفس في بناء شخصية

المسلم، وإلى دورها الأساسي في ضمان نجاح عملية التعليم وجني ثمارها. فالعلم المجرد عن التزكية علم قد يدمِّر صاحبه، ويدفعه في طريق حبِّ التعالي والسيطرة والابتزاز، ممَّا يعود عليه وعلى البشرية بالخسارة والهلاك، وهذا هو العلم الَّذي استعاذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: «اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع». (رواه ابن حبَّان عن أنس بن مالك).

وهكذا نجد أن المدرسة الإسلامية اهتمَّت بتزكية النفوس كمرحلة إعداد أوَّلية، وعندما أصبحت قلوب تلامذتها أوعية طاهرة تصلح لإلقاء نور العلم فيها، بدأت المرحلة الثانية وهي التعليم الشامل لعلوم القرآن الَّتي تضع علوم الحياة في إحدى كفَّتي الميزان، بينما تضع علوم الدِّين في الكفَّة الأخرى ليكونا مطلبين متعادلين يحقِّقان سعادة المؤمنين ونجاحهم في الدارين. وإلى هذا أشار القرآن الكريم في قوله تعالى: {..ربَّنا آتنا في الدُّنيا حسنةً وفي الآخرة حسنة..} (2 البقرة 201). وممَّا يؤيِّد هذه الحقيقة ويدعمها أن أوَّل ما نزل من وحي الله على قلب النبي صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى: {اقرأ باسم ربِّك الَّذي خَلَق * خَلَقَ الإنسانَ من عَلَق * اقرأ وربُّكَ الأكرم * الَّذي عَلَّمَ بالقلم * عَلَّمَ الإنسانَ ما لم يعلم} (96 العلق آية 1-5) فكان الأمر بالقراءة الَّتي تعتبر من أبجديات العلم والتعليم يرمز في هذا الخطاب إلى نوعين من العلوم: علوم القلب الَّتي تؤخذ عن طريق إدمان ذكر الله وترديد اسمه، وعلوم الحياة الَّتي تؤخذ عن طريق القلم وتنتقل من جيل إلى جيل بواسطته.

وانطلاقاً من هذا الخطاب والعمل بمقتضاه؛ تحوَّل مسجد النبي صلى الله عليه وسلم إلى جامعة تُعلِّم كلَّ العلوم، وأصبح طلب العلم فيها والانتساب إليها فرضاً على كلِّ مسلم. فدخلها المسلمون أميين غارقين في عزلتهم عن العالم حضارياً وفكرياً، وتخرَّجوا منها بفضل معلِّمهم ونبيِّهم علماء فقهاء أدباء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، وحملوا شهاداتٍ عاليةً، ومِنَحاً قيِّمةً، منها ما رواه سعيد بن المسيِّب عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أصحابي كالنجوم بأيِّهم اقتديتم اهتديتم» (أخرجه البيهقي والديلمي)، وهذا ما أكَّده تعالى بقوله: {هو الَّذي بَعثَ في الأمِّيينَ رسولاً منهم يتلو عليهِم آياتِهِ ويُزكِّيهِم ويُعلِّمُهُمُ الكتابَ والحِكمةَ وإن كانوا من قَبْلُ لفي ضلالٍ مبين} (62 الجمعة آية 2).

وما أجمل المَثَلَ الَّذي ضربه لنا الرسول المعلِّم الأوَّل عليه الصَّلاة والسَّلام في بيان مهمَّته الجليلة في التعليم ومدى تأثُّر الناس بها عندما قال: «مَثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيِّبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسَقَوْا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مَثَلُ من فَقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به من العلم فَعَلِم وعلَّم، ومَثَلُ من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الَّذي أُرسِلتُ به» (متفق عليه من حديث أبي موسى رضي الله عنه). ولما كان تعليم النبي صلى الله عليه وسلم شاملاً لجميع أبواب الخير، فقد ركَّز على تعليم الحكمة الَّتي تُعَدُّ من أعظم هذه الأبواب وأجلِّها بدليل قوله تعالى: {..ومن يُؤتَ الحكمة فقد أُوتيَ خيراً كثيراً..} (2 البقرة آية 269).

والحكمة في الإسلام تمثِّل الجانب العقلاني في التربية الإيمانية؛ لأنها دراسة للأشياء بحقائقها ظاهراً وباطناً، ومعرفةٌ تتناول ارتباط الأسباب بمسبَّباتها قَدَراً وشرعاً، وخَلْقاً وأمراً. وهذه الدراسة والمعرفة هي الحكمة العلمية، أمَّا الانتقال من مرحلة الدراسة إلى مرحلة التنفيذ والتطبيق فهي الحكمة العملية. وإذا كانت الحكمة هبة الله للمرسلين، فإنها الضالَّة المنشودة لبقيَّة المؤمنين وبغيتهم، فحيثما وجدوا الحقيقة الَّتي أُمروا أن يبحثوا عنها أخذوها، وهذا الوصف هو الَّذي أطلقه معلِّم الحكمة محمَّد صلى الله عليه وسلم على كلِّ مؤمن فقال: «الكلمة الحكمة، ضالَّة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحقُّ بها» (أخرجه الترمذي).

ونظراً لاستناد الحكمة إلى العقل وقيامها على أسسه؛ جاء توجيه النبي صلى الله عليه وسلم آمراً بالتمهُّل والتفكُّر قبل الإقدام على أي خطوة يخطوها المؤمن، لتكون صائبة سديدة. وقد ورد في الأثر: [إذا هممت بأمر فتدبَّر عاقبته، فإن كان رشداً فأمضه، وإن كان غياً فانته عنه]، فكلُّ مرحلة من مراحل حياة المؤمن يجب أن ترافقها الحكمة الرائدة، الَّتي يحتاج إليها في حياته عندما يشرف على خوض غمار الدعوة إلى الله، وعندها يصبح مأموراً بها وليس مختاراً، لقول الله تعالى: {ادعُ إلى سبيلِ ربِّك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة..} (16 النحل آية 125). ولهذا جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم سنَّته فيدعوته، وسلاحه الَّذي انتصر به على عداوة أعدائه، وكانت تتجلَّى حكمته بأروع صورها عندما كان يستخدم في دعوته أساليب متنوِّعة ومختلفة، تختلف باختلاف كفاءات المدعوِّين واستعداداتهم. وعلى ضوء هذه الحكمة النبويَّة تحوَّل أعداء الأمس أحباباً، والأخصام المناوئون صحابة، وبقوَّتها الجاذبة كان يدخل المشرك مسجد النبي يريد اغتياله، ويخرج مسلماً يدعو إلى الله، وينتقل من زعيم في الكفر إلى زعيم في الإيمان.

فهذا هو الإسلام دين التزكية والعلم والحكمة، وكتابه قرآن حكيم مليء بكنوز الحكمة وغني بمادَّتها، وخير دليل على اهتمامه بها ودعوته إليها أن سُمِّيت سورة من سوره باسم لقمان؛ الرجل الَّذي كان عبداً أسود اللون، فلم يضرَّه ذلك شيئاً، لأنه أوتي عطاءً عظيماً من الله وهو الحكمة، الَّتي رفعت مقامه من عبد مملوك فسلكته في مدارج الملوك، وخلَّد ذكره في الأرض وفي السماء، قال تعالى: {ولقد آتينا لقمان الحكمة..} (31 لقمان آية 12).

أمَّا عن الحكمة القوليَّة، فخير ما يُذكر عنها ما قاله معلِّم الحكمة محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام في حقِّها: «نِعْمَ العطيَّة ونِعْمَ الهدية كلمة حكمة تسمعها فتطوي عليها ثمَّ تحملها إلى أخ لك مسلم تعلِّمه إيَّاها تعدل عبادة سنة» (أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس رضي الله عنه). ومن درر وجواهر الكَلِمِ النبوي في تطبيق الحكمة بشكل عملي، اخترنا طائفة منها كقوله صلى الله عليه وسلم : «استعينوا على قضاء حوائجكم بالسِّر والكتمان» (أخرجه الطبراني وأبو نعيم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً)، وقوله: «أُمرنا أن ننزِّل الناس منازلهم وأن نخاطبهم على قدر عقولهم» (أخرجه مسلم تعليقاً في مقدمة صحيحه وأبو داود عن السيِّدة عائشة رضي الله عنها)، وقوله: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه» (أخرجه ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنه مرفوعاً وأخرجه أبو داود عن الشعبي مرسلاً)، وقوله: «كلِّموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتريدون أن يُكذَّب الله ورسوله» (رواه البخاري) ». وقال عيسى عليه السَّلام: (لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها عن أهلها فتظلموهم، كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء في موضع الدَّاء).

ومن الأقوال الَّتي رويت في الحكمة وقيمتها:

الحكمة نور الأبصار، ولسان الإيمان، وميزان العدل، وأمن الخائف، ومُتَّجر الرابح، وحظُّ الدنيا والآخرة، وسلامة العاجل والآجل، وهي السفير بين العقل والقلب، لا تندرس آثارها ولا يهلك امرؤ بعد عمله بها.

وعرَّفها آخرون بقولهم: الحكمة هي فعل ما ينبغي، في الوقت الَّذي ينبغي، وفي المكان الَّذي ينبغي، وعلى الشكل الَّذي ينبغي.

وهكذا بنور النبوة، وتكاتُفِ القلوب المؤمنة مع الداعية، المعلِّم المزكِّي الحكيم، ينقلب ضلال أبناء الأمَّة إلى هدى، وجهلهم إلى علم وثقافة، وتخلُّفهم إلى تقدُّم وازدهار، ويُفتح الطريق أمام الإنسانية جمعاء، لتصل إلى الحضارة الحقيقية الَّتي تجمع بين طياتها سعادة الدَّارين.

سورة الأحزاب(33)

قال الله تعالى: {ياأيُّها النَّبيُّ إنَّا أرسلناك شاهداً ومُبشِّراً ونذيراً(45) وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً مُنيراً(46) وبشِّر المؤمنين بأنَّ لهم مِن الله فضلاً كبيراً(47)}

سورة الأعراف(7)

وقال أيضاً: {..إنْ أنا إلاَّ نذيرٌ وبشيرٌ لقوم يؤمنون(188)}

سورة الأنعام(6)

وقال أيضاً: {وأَنْذِرْ به الَّذين يخافون أن يُحشروا إلى ربِّهم ليس لهم من دونِه وليٌّ ولا شفيعٌ لَعلَّهم يتَّقون(51)}

/ ومضات:

ـ زَفَّ النبي صلى الله عليه وسلم لقومه البشرى برفع مستوى حياتهم، مادياً وروحياً ونفسياً واجتماعياً، وحمل التهديدَ والوعيدَ من ربِّ العالمين لمن يُعرض عن نداء الحقِّ والعدالة، فيسيء بذلك إلى نفسه وغيره.

ـ الدعوة إلى الله مهمَّة قدسية وجليلة، لا تُوكل لأحد من الأنبياء أو ورثتهم إلا بإذن من الله سبحانه.

ـ لقد تفضَّل الله تعالى على أنبيائه ورسله بعلامة تدلُّ على صدق نبوَّتهم واصطفائهم، وهي نورٌ إلهيٌّ فيَّاض، يُشِعُّ من حنايا قلوبهم، ليغمر قلوب أتباعهم ومحبِّيهم.

ـ الخوف من الله عامل أساسي في تكوين النفس المؤمنة، ولابدَّ لتوفُّره من معرفة عظمة الخالق فيما خلق، وإدراك أن ما خلقه لم يكن مصادفة أو عبثاً، وإنما هو نظام له خطَّة وهدف، من أدركه والتزم به نال الشفاعة والقربى، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، ومن أعرض عنه هلك وغوى.

/ في رحاب الآيات:

تحدِّد هذه الآيات الكريمة وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو شاهدٌ على التحوُّل الجذري الَّذي أحدثه القرآن في الناس، بولادة الأمَّة المسلمة الجديدة، وهو مبشِّرٌ بالخير والعطاء الإلهي لمن يتَّقي الله، ومنذرٌ للمعرضين عن نور المعرفة والهداية. قال ابن عباس رضي الله عنه : لمَّا نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّاً ومعاذاً فبعثهما إلى اليمن، وقال: «اذهبا فبشِّرا ولا تنفِّرا، ويسِّرا ولا تعسِّرا، فإنه قد أُنزل عليَّ: {ياأيُّها النَّبيُّ إنَّا أرسلناكَ شاهداً ومُبشِّراً ونذيراً}» (أخرجه ابن أبي حاتم وأخرجه الطبراني بإسناد مثله). وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «اجتمع عتبة وشيبة وأبو جهل وغيرهم فقالوا: أَسْقِطِ السماء علينا كِسَفاً، أو ائتنا بعذاب، أو أمطر علينا حجارة من السماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ذاك لي، إنما بعثت إليكم داعياً ومبشِّراً ونذيراً». فمهمَّة الرسول هي دعوة الناس لعبادة الله، ومكافحة الشرك والكفر، فهو السراج الَّذي يهديهم ويخرجهم من ظلام الشرك والكفر إلى نور الإيمان، وهذا لا يكون إلا بأمر من الله وبإذن منه جلَّ وعلا.

إن استناد مهمَّة النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة على قاعدتي التبشير والإنذار، قد ترك أثراً عميقاً في نفوس المدعوين؛ لأن التبشير كان يمثِّل العامل التربوي الترغيبي، الَّذي يدفعهم باتِّجاه

ما ينفعهم ويسعدهم، بينما كان الإنذار يمثِّل العامل التربوي الترهيبي، الَّذي يحجبهم عن كلِّ ما يضرُّهم ويؤذيهم.

إلا أن الناس غير متساوين في فهمهم لما يُلقى إليهم، فمنهم من لا يتجاوز الكلام أسماعهم، ومنهم من تدخل الموعظة أذن أحدهم وتخرج من الأخرى، دون أن تترك وراءها أي أثر، والقلَّة القليلة منهم من تتَّحد الكلمة مع نفوسهم، وتولِّد شحنات من الحبِّ والتوجُّه إلى الله، كما تتَّحد ذرَّة الأوكسجين مع ذرَّتين من الهيدروجين، فتشكِّل ماءً يمدُّ الأحياء بأسباب الحياة ويروي العطاش. وهؤلاء يمثِّلون فئة المؤمنين الَّذين يخشون الله ويخافون أهوال يوم الحشر وشدَّة الحساب، وهم مَنْ يُرجى الخير من إيمانهم وتقواهم.

ولمثل هؤلاء المؤمنين يزفُّ الله البشارة على لسان رسوله الأمين، بأن لهم من الله فضلاً كبيراً، وبأن آثار هذا العطاء الإلهي ستظهر في ذواتهم وأُسَرِهم ومجتمعاتهم، حيث ينقلب الظلم عدلاً، والخوف أمناً، والفقر غنىً، والجهل علماً. أخرج ابن جرير وعكرمة عن الحسن البصري أنه قال: لما نزل قوله تعالى: {ليغْفِرَ لك الله ما تَقدَّمَ من ذنبكَ وما تأخَّر..} (48 الفتح آية 2) قالوا: يارسول الله! قد علمنا ما يُفعل بك فماذا يُفعل بنا؟ فأنزل الله: {وبشِّرِ المؤمنين بأنَّ لهم من الله فضْلاً كبيراً}.

والخلاصة: أن الداعية المأذون من حضرة الله، مشاهد لأنوار ربِّه بصفاء مرآة قلبه، وهو شاهد على مجتمعه، بصير بأمراضه، يحمل البشرى بالشفاء والعلاج لمن يعملون بإرشاداته ووصاياه، أمَّا من أعرض عنها فله الإنذار بسوء العاقبة وشرِّ المصير. وإن أعطيات الله تعالى تنال البشر كافة، ولكن بشائره تُزَفُّ للمؤمنين خاصَّة، وهي فضل كبير، وعطاء متميِّز يخصُّهم به سبحانه وتعالى بالسعادة الروحية في الدنيا والآخرة في ظلِّ عنايته ورعايته.